

مقَال

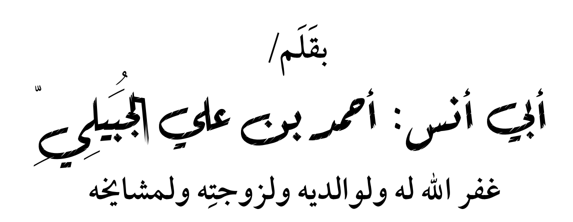
طرائقُ الحاكمِ الظَّالمِ

في دَمغِه للحقِّ، وقَلْبِ الحقائقِ، واستِمالَةِ قُلُوبِ الرَّعيَّةِ بالباطِل

نَظْرَةٌ تَأَمُّلِيَّةٌ في قصَّةِ سِيِّدِنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وحِوارِه مع فِرعونَ المَثْبُور

هذه مُسوَّدة؛ وينقصُها التَّدقيق اللُّغوي

بقَلَم/



غفر الله له ولوالديه ولزوجتِه ولمشايخه

سبحان الله وبحمده – سبحان الله العظيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، والصَّلَاةُ والسَّلامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وَمَن وَالَاهُ، **أَمَّا بَعْدُ**:-

فهذه خطَراتٌ مختصرَاتٌ، وهمساتٌ مقتبَساتٌ، ظَهَرَتْ لِي أثناءَ قِراءتِي لسورةِ الأعرافِ، وتحديدًا لقصَّةِ سيِّدِنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما دَارَ بينَه وبيْنَ فِرعونَ المَثْبُورِ، تَجَلَّى لِي فيها بعضُ صِفاتِ الحاكِمِ الظَّالمِ في كيفيَّةِ دَمغِهِ للحقِّ، وقَلْبِ الحقائقِ، واستِمالَةِ قُلُوبِ الرَّعيَّةِ بالباطِلِ، فحاولتُ رَبْطَ ذلك مع نظَائِرِه في المَواضِعِ الأُخرى في الكِتابِ العزيزِ، وقيدتُها خشيةَ نسيانِها ونفعًا لمَن وَجَدَ فيها نفعًا أو فائدةً.

فأقولُ مستعينًا باللهِ العظيمِ، وسائلًا التَّوفيقَ:

جَرَتْ عادَةُ الطُّغاةِ مِن الحُكَّامِ والسَّلاطِين وأذْرَابِهِم في دَمْغِ مَنْ خالَفَهم ولو كانَ الحَقُّ والحُجَّةُ معَهَ، غيرُ مُلْتَفتينَ إلى مصلَحَةٍ سوى مصلَحَتِهم هُم، وغيرُ محُافظِين علَى شيءٍ سوى كُرسيِّ عِزِّهمُ الزَّائفِ، ويستخدمون في ذلك كلَّ حِيلَةٍ، ويَسلكونَ لأجلِه كلَّ سبيلٍ، وما يلْبَثُ هؤلاءِ الطُغاةُ الظَّلَمَةُ إلَّا ويجدون أنفُسَهم في مَرَاتِعِ الهلاكِ وقد نَشَبَ فيهم بَرَاثِنَه وأنيابَه حتَّى أرْدَاهم في غَيَاهِبِه إلى غيرِ رجْعَةٍ.

ومِن هؤلاءِ العُتَاةِ الجَبَابرةِ: فِرعونُ المَثْبُورُ؛ فلَمَّا أرسلَ اللهُ العظيمُ عَزَّوَجَلَّ إليه رسُولَه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالآياتِ البيِّناتِ والحُجَجِ الواضحاتِ الدَّامِغاتِ، تَكَبَّرَ فِرعونُ وطَغَى وبَغَى وَوَرَدَ كلَّ مَوردٍ وتَدَثَّرَ بكلِّ خبيثٍ؛ حتَّى يصْرِفَ أنظارَ أتباعِه وأفهامَهم عن ساطِعِ ما جاءَ به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتَنَوَّعَتْ أساليبُه، وتعَدَّدتْ ألاعيبُه، ومِن ذلك:

١- الإنكارُ في صورةِ الاستِفهامِ:

وهذا يتَجلَّى في عِدَّةِ آياتٍ، مِنها:

قولُه: {**قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى**} [طه: ٤٩].

وقولُه: {**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**} [الشعراء: ٢٣].

وهذا استِفهامٌ قالَه ذاكَ المَثْبُورُ مستنْكِرًا ومُنكِرًا ما أخبرَه به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مِن وجودِ

الرَّبِّ الخالِقِ كما أشارَ إليه الحافِظُ ابنُ كثيرٍ في «التَّفسير» (٥/ ٢٦٢)، وهو أسلوبٌ مَعروفٌ في لُغَةِ العَرَبِ، ويُوجَدُ في عِدَّةِ آياتٍ مِن كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَعلومٌ أنَّ مِن الاستِفهامِ ما هو تَقريريٌ، وما هو إنكاريٌّ، وما هو تَوبيخيٌّ ... وغير ذلك.

ومِن إنكارِ فِرعونَ الذي يظْهَرُ مِن طريقةِ سُؤَالِه السَّابقِ - لمَّا قال له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {**قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ**} [طه: ٤٧] -؛ [أنَّه أَعْرَضَ عن أنْ يقولَ: فمَنْ رَبِّي؟ إلى قولِه {**فَمَنْ رَبُّكُمَا**}؛ إعراضًا عنِ الِاعتِرَافِ بالْمَرْبُوبِيَّةِ ولو بحكايةِ قولِهما؛ لِئَلَّا يَقَعَ ذلكَ في سَمْعِ أتباعِهِ وقومِهِ فيَحْسَبُوا أنَّه مُتَرَدِّدٌ في معرفَةِ ربِّهِ، أو أنَّه اعتَرَفَ بأنَّ له رَبًّا]. قالَه الطَّاهرُ ابنُ عاشور في «التَّحرير والتَّنوير» (١٦/ ٢٣٢).

وهذا الأسلوبُ الإنكاريُّ يصحَبُه توبيخٌ وتَقْرِيعٌ أحيانًا كما في قولِ العجَّاجِ - كما في «شرح الشَّواهد الشِّعريَّة» (١/ ٤٨ - ٤٩) -:

أَطَرَبًا وَأَنْتَ قِنَّسْرِيُّ وَالدَّهْرُ بِالْإِنْسَانِ دَوَّارِيُّ

القِنَّسريُّ: هو الشَّيخُ الكبيرِ. وهنا يُنْكَرُ عليه مع التَّوبيخِ طَرَبُه وهو في هذه السِّنِّ.

وعُرِفَ الطُّغاةُ والظَّلَمَةُ باستخدامِ هذا الأسلوبِ غالِبًا أمامَ الرَّعيَّةِ أو الحاشيةِ حتَّى يُقَرِّرون في نُفُوسِ هؤلاءِ الأتباعِ ما هُم عليه مِن اتِّبَاعِه، ويدفعونَ ما أَتَى به مَن خالَفَهم، وهو مِن أَلْيَنِ الأساليبِ التي يستخدِمُها أولئكِ الطُّغاةُ، وأحيانًا يكون بمثابَةِ هدوءِ ما قَبلَ عاصِفَةِ البَطْشِ أوِ الاعتِقالِ وما إلى ذلك.

٢- الحَيْدَةُ والتَّشغيبُ عندَ المُحَاجَجَةِ:

وجاءَ هذا في موضعينِ:

المَوضِعُ الأوَّل: في سورةِ «طه»، لمَّا قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفِرعونَ: {**قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ** ...} [طه: ٤٧]، فقال فِرعونُ: {**فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى**} [طه: ٤٩]، فأجابَه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بكُلِّ وضوحٍ وثباتٍ: {**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**} [طه: ٥٠].

ولَمَّا وجدَ فِرعونُ الإجابةَ واضِحَةً ولم يدرِ بِمَا يُجيبُ، لَجَأَ إلى أسلوبِ الحَيدَةِ وتغييرِ المَوضوعِ أوِ الشَّنْشَنَةِ والتَّشغيبِ، فقال المَثْبُورُ: {**فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**} [طه: ٥١].

وهُنا [أرادَ فِرعونُ أنْ يُحَاجَّ موسى بمَا حَصَلَ لِلْقُرُونِ الماضِيَةِ الَّذين كانوا علَى مِلَّةِ فِرعونَ

- أيْ قُرُون أهلِ مِصرَ -، أيْ ما حالُهُمْ، أفتَزْعُمُ أنَّهمُ اتَّفقُوا علَى ضلالَةٍ. وهذهِ شَنْشَنَةُ مَنْ لا يَجِدْ حُجَّةً فَيَعْمِدُ إلى التَّشْغِيبِ بِتَخْيِيلِ استِبْعَادِ كلامِ خَصْمِهِ، وهو في مَعْنَى قولِ فِرعونَ ومَلَئِهِ في الآيَةِ الأُخْرَى: {**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**} [يونس: ٧٨].

ويجوزُ أنْ يكونَ المَعْنَى أنَّ فِرعونَ أرادَ التَّشْغِيبَ علَى موسى حِينَ نَهَضَتْ حُجَّتُهُ بأنْ يَنْقُلَهُ إلى الحديثِ عنْ حالِ القُرُونِ الأُولَى: هلْ هُمْ في عذابٍ بمناسبةِ قولِ موسى: {**أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى**} [طه: ٤٨]، فإذا قالَ: إنَّهمْ في عذابٍ، ثَارَتْ ثَائِرَةُ أبنائهمْ فصارُوا أعداءً لموسى، وإذا قالَ: هُمْ في سلامٍ، نَهَضَتْ حُجَّةُ فِرعونَ لأنَّهُ مُتَابِعٌ لدِينِهِم، ولأنَّ موسَى لمَّا أعلَمَهُ بِرَبِّهِ - وكانَ ذلك مشعرا بالخلق الأوَّلِ -، خَطَرَ بِبَالِ فِرعونَ أنْ يسألَهُ عنِ الاِعتِقَادِ في مصيرِ النَّاسِ بَعْدَ الفَنَاءِ، فسأَلَ: ما بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى؟ ما شأنُهُم وما الخبَرُ عنهم؟ وهوَ سؤالُ تَعْجِيزٍ وَتَشْغِيبٍ]. قالَه الطَّاهرُ ابنُ عاشور في «التَّحرير والتَّنوير» (١٦/ ٢٣٤).

ولكنْ أنَّى يَنْفَعُ هذا مع صاحِبِ الحقِّ الفَطِنِ النَّبِيهِ المُؤَيَّدِ مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فقد أجابَ بتوفيقٍ مِنَ اللهِ بإجابَةٍ شافيَةٍ فقال: {**عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى**} [طه: ٥٢].

وهذا الجوابُ مِن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ [صالِحٌ للاحتِمَالَين، فعَلَى الاحتِمالِ الأوَّلِ يكونُ موسى صَرَفَه عنِ الخوضِ فيمَا لا يُجْدِي في مَقَامِه ذلك الذي هو المُتَمَحِّضُ لدعوةِ الأحياءِ لا البحث عن أحوالِ الأمواتِ الذين أَفْضَوا إلى عالَمِ الجزاءِ، وهذا نَظِيرُ

قولُ النَّبيِّ ﷺ لَمَّا سُئلَ عن ذَرَارِي المُشركين، فقال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**».

وعلَى الاحتِمالِ الثَّانِي يكونُ موسى قد عَدَلَ عن ذِكْرِ حالِهم خَيْبَةً لِمُرادِ فِرعونَ وعُدُولًا عنِ الاشتِغالِ بغيرِ الغَرَضِ الذي جاءَ لأجلِه.

والحاصِلُ أنَّ موسى تَجَنَّبَ التَّصدِّي للمُجَادَلَةِ والمُناقَضَةِ في غيرِ ما جاء لأجلِه؛ لأنَّه لم يُبْعثْ بذلك]. قالَه في «التَّحرير والتَّنوير» (١٦/ ٢٣٤).

ثُمَّ شَرَعَ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سَرْدِ حُجَّتِه وبيانِها ولم يَنخَدِعْ برَوَغَانِ ذاك المَثْبُورِ، وفي هذا دَرْسٌ عَظِيمٌ للدَّاعيةِ في دَعوتِه، والمُناظِرُ في مناظَرتِه، وصاحِبُ الحقِّ في مُحَاجَجَتِه.

والمَوضِعُ الثَّاني: في سورةِ «الشُّعراء»، لمَّا قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِفرعونَ: {**إِنَّا رَسُولُ رَبِّ**

الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦]، فقال فِرعونُ: {**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**} [الشعراء: ٢٣]، فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ**} [الشعراء: ٢٤].

وهنا أيضًا لَمَّا لم يَدْرِ فِرعونُ بِمَا يُجِيبُ، لَجَأ إلى التَّشغيبِ، فـ {**قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ**} [الشعراء: ٢٥].

[وهذا إعراضٌ بَيِّنٌ مِن فِرعونَ عن خِطابِ موسى واستِثارَةٌ لنفُوسِ المَلأ مِن حولِه وهُم أهلُ مَجلِسِه، فاستَفْهَمَهمُ استِفْهامَ تَعَجُّبٍ مِن حالِهم كيف لم يَستَمِعوا ما قالَه موسى، فَنَزَّلَهُم مَنزِلَةَ مَن لم يَستَمِعْه؛ تَهْيِيجًا لنفُوسِهم كي لا تَتَمَكَّنَ منهم حُجَّةُ موسى، فسَلَّطَ الاستِفهامَ على نَفْيِ استِماعِهم. وهذا التَّعَجُّبُ مِن حالِ استِماعِهم وسُكوتِهم يَقْتَضِي التَّعَجُّبَ مِن كلامِ موسى بطريقِ فَحْوى الخِطَابِ فهو كِنايَةٌ عن تَعَجُّبٍ آخرَ. ومَرجِعُ التَّعَجُّبَين أنَّ إثباتَ ربٍّ واحدٍ لجميع المخلوقاتِ مُنْكَرٌ عند فِرعونَ؛ لأنَّه كان مُشركًا فيَرَى توحيدَ الإلهِ لا يَصِحُّ السُّكوتُ عليه]. قالَه في «التَّحرير والتَّنوير» (١٩/ ١١٨) بتَصَرُّفٍ.

ومع هذا فلم يَلْتَفِتْ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واستَمَرَّ في بيانِ الحَقِّ الذي جاءَ لِبَيانِه والدَّعوةِ إليه فقال: {**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**} [الشعراء: ٢٦].

وهنا لَجَأَ فِرعونُ إلى التَّنابُزِ بالأوصافِ، فقال المَثْبُورُ: {**إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ**} [الشعراء: ٢٧].

وهذا - كما هو واضِحٌ - [احتِدَادٌ مِن ذاك المَثْبُورِ؛ لأنَّ ما ذَكَرَه موسى يَشمَلُ آباءَه المُقَدَّسِين بذِكْرٍ يُخرِجُهم مِن صِفةِ الإلهيَّةِ، وزَعَمَ المَثبُورُ أنَّ هذا يُخالِفُ العَقلَ بالضَّرورةِ فلا يَصدُرُ إلَّا مِن مُخْتَلِّ الإدراكِ، وأكَّدَ المَثبُورُ كلامَه بحرَفَي التَّأكيدِ؛ لأنَّ حالةَ موسى لا تُؤْذِنُ بجُنُونِه فكان وصْفُه بالمَجنونِ مُعَرَّضًا للشَّكِّ فلذلك أكَّدَ فِرعونُ أنَّه مجنونٌ يعني أنَّه عَلِمَ مِن حالِ موسى ما عسى أن لا يَعلَمُه السَّامعونَ]. قالَه في «التَّحرير والتَّنوير» (١٩/ ١١٨) بتَصَرُّفٍ واختِصارٍ.

وأيضًا لم يَلْتَفِتْ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واستَمَرَّ في البيانِ ولم يَعْنِه ما قيلَ في ذاتِه، فقال: {**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**} [الشعراء: ٢٨] إلى آخرِ الآياتِ.

وهذا الأسلوبُ كسابِقِه، فهو مِن الأساليبِ النَّاعِمةِ اللَّيِّنةِ لَدَى الطُّغاةِ أيضًا.

٣- طَلَبُ حُجَّةِ الخصمِ مع التَّشكيكِ:

وجاءَ هذا في موضعينِ:

المَوضِعُ الأوَّل: في سورةِ «الأعرافِ»، فلمَّا قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفرعونَ: {**قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**} [الأعراف: ١٠٥]، قال له فِرعونُ: {**إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**} [الأعراف: ١٠٦].

[أي قال فرعونُ: لست بمُصَدِّقك فيما قلتَ، ولا بمُطِيعكَ فيما طَلَبتَ، فإنْ كانتْ معك حُجَّةٌ، فأظهرْها لِنَراها إنْ كنتَ صادقًا فيمَا ادَّعيتَ]. قال ابنُ كثيرٍ في «التَّفسير» (٣/ ٤٠٨).

والمَوضِعُ الثَّاني: في سورةِ «الشُّعراء»، فلمَّا قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفرعونَ: {**أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ**} [الشعراء: ٣٠]، قال له فِرعونُ: {**فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**} [الشعراء: ٣١].

[قولُه: {**إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**}؛ إيماءٌ إلى أنَّ في كلامِ فرعونَ ما يقتضي أنَّ فرضَ صِدقِ موسى فَرْضٌ ضعيفٌ كما هو الغالِبُ في شَرْطِ «إنْ» مع إيهامِ أنَّه جاء بشيءٍ مُبينٍ يُعتبرُ صادِقًا فيما دَعا إليه، فبَقِي تَحقيقُ أنَّ ما سيجيءُ به موسى مُبينٌ أو غيرُ مُبينٍ. وهذا قد استبقَاه كلامُ فِرعونَ إلى ما بعدَ الوقوعِ والنُّزولِ ليتأتى إنكاره إنِ احتَاجَ إليه]. قالَه في «التَّحرير والتَّنوير» (١٩/ ١٢٣).

فعادَةُ الطَّاغيةِ أنْ يُشَكِّكَ فيما عند خصمِه حتَّى قبلَ أنْ يسمَعَه منه؛ لِئلَّا يجعلَ لذهنِ الحاضرينَ مُتَّسَعًا للتَّفكيرِ - ولو لوَهْلَةٍ - في احتماليَّةِ صِدْقِ خصمِه.

ولَمَّا ظَهَرَتْ حُجَّةُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبَيِّنَتُه، تَعَدَّدَتِ أساليبُ ذاك المَثْبُورِ ومَلئِه في مواجهةِ سيِّدِنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن ذلك:

٤- وصفُ الخصمِ بما ليس فيه والتَّنابُذ بالألقابِ:

وهذا تَجَلَّى في غيرِ ما موضعٍ مِن كِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عندما جاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بآيةِ العصا واليدِ البيضاءِ، فوصفوه بالسَّاحِر في مَواضِعَ عديدةٍ منها: {**إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**} [الأعراف: ١٠٩] و[الشعراء: ٣٤]، و{**إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ**} [طه: ٦٣]، و{**إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ**} [يونس: ٧٦]، و{**سَاحِرٌ كَذَّابٌ**} [غافر: ٢٤] وغير ذلك.

وهذه نِحْلَةٌ قدِ انتَحَلَها فِرعونُ ومَلَؤه وتَواطأوا عليها، تبعَ فيها بعضُهم بعضًا، فكلُّ واحدٍ

مِن أهلِ ذلك المَجلِسِ قد وَطَّنَ نفْسَه على هذا الاعتِذارِ. كما أشار إلى ذلك ابنُ كثيرٍ في «التَّفسير» (٣/ ٤٠٩)، وصاحِبُ «التَّحرير والتَّنوير» (٩/ ٤٢) وغيرُهما.

وصَدَق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال: {**أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**} [يونس: ٧٧].

٥- التَّدليسُ واتِّهامُ نِيَّةِ الخصمِ بالباطِلِ:

وهذا يظْهَرُ في قولِ فرعونَ ومَلئِه عندما شاهدوا آياتِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، {**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ**} [يونس: ٧٨].

فهنا اتَّهموا نِيَّتَه بأنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يقولُ ويفعلُ ذلك إلَّا لتكونَ له الكبرياءُ والعَظَمَةُ والرِّياسةُ في الأرضِ كما أشارَ إليه في كثيرٍ في «التَّفسير» (٤/ ٢٤٨).

ويَظهرُ أيضًا في قولِهم: {**يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ**} [الأعراف: ١١٠] و[الشعراء: ٣٥].

قال ابنُ عَطِيَّة في «المُحرَّر الوجيز» (٢/ ٤٣٧): يَعنونَ بأنَّه يَحكُمُ فيكم بنَقلِ رَعِيَّتِكم في بني إسرائيلَ، فيُفْضِي ذلك إلى خَرَابِ دِيارِكِم إذا ذَهَبَ الخَدَمَةُ والعمرةُ. اهـ

وقال ابنُ جُزَيٍّ في «التَّسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ٢٩٧): وقيل: المُرادُ إخراجُ بني إسرائيلَ، وكانوا خُدَّامًا لهم، فتخربُ الأرضُ بخروجِ الخُدَّامِ والعُمَّارِ منها. اهـ

ويَظهرُ أيضًا في قولِهم: {**يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى**} [طه: ٦٣].

وهذا قِيل للسَّحَرَةِ، [وأرادوا مِن هذا إثارةَ حَمِيَّةِ بعضِهم غيرةً علَى عوائدِهم، فإنَّ لكلِّ أُمَّةٍ غَيرةٌ علَى عوائدِها وشرائعِها وأخلاقِها. ولِذا فَرَّعوا على ذلك أَمْرَهم بأنْ يَجْمعوا حِيَلَهُم وكلَّ ما في وُسْعِهم أنْ يَغلِبُوا به موسى]. قالَه في «التَّحرير والتَّنوير» (١٦/ ٢٥٥).

وكلُّ هذا مِن فِرعونَ ومَلئِه افتِراءٌ حتَّى يُبْغِضَ أصحابُ الأرضِ دعوتَه، ودائمًا تهييجُ النُّفوسِ بثَمَرَةِ الدُّنيا العاجِلَة تُؤتِي ثِمَارَها في تَثبيتِ النُّفوسِ علَى الباطِلِ.

٦- الاستِنادُ إلى الماضي والاعتِضادُ به:

ومِن ذلك: قولُ اللهِ تعالى: {**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**} [يونس: ٧٨].

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: {**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**} [القصص: ٣٦].

قال في «**التَّحرير والتَّنوير**» (٢٠/ ١١٩): قد جعلوا انتِفاءَ بلوغِ مثلِ هذه الدَّعوةِ إلى آبائِهم حتَّى تصلَ إليهم بواسطةِ آبائِهم الأوَّلين، دليلًا على بطلانِها، وذلك آخرُ ملجأ يَلْجأ إليه المَحْجوجُ المَغلوبُ حين لا يجدُ ما يدفعُ به الحَقَّ بدليلٍ مقبولٍ فيفزَعُ إلى مثلِ هذه التَّلفيقاتِ والمُبَاهَتَات. اهـ

٧- الاستِعانةُ بالحاشيةِ الظَّالِمَةِ:

وهذا يظْهَرُ في قولِ فرعونَ لمَلئِه عندما شاهدَ آياتِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {**فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**} [الأعراف: ١١٠] و[الشعراء: ٣٥].

والحاكمُ الظَّالِمُ يستَعينُ بحاشيتِه التي علَى شاكِلتِه: إمَّا لضعفِ رأيهِ في النَّازِلَةِ، وإمَّا لاختِيارِ الأشدِ نكَالًا وإضعافًا للخصمِ، وإمَّا لِيأخذَ موافقتَهم علَى رأي نفْسِه ويُظْهِرَ مِدْحَتَهم له وربَّما غير ذلك.

٨- الاستِقواءُ علَى صاحِبِ الحقِّ بالمُناظَرةِ الباطِلة:

ولجأ فرعون ومَلئُه إلى هذا الأسلوبِ بعدما [تشاوروا في أَمرِه كيف يَصنعونَ في أَمرِه وكيف تكونُ حِيلَتُهم في إطفاءِ نُورِه وإخمادِ كلِمتِه وظهورِ كَذِبِه وافترائِه، وتَخَوَّفوا أنْ يَستمِيلَ النَّاسِ بسِحرِه فيما يَعتقِدون، فيكون ذلك سببًا لظُهورِه عليهم وإخراجِه إيَّاهم مِن أرضِهم، والذي خافوا منه وَقَعوا فيه]، قالَه ابنُ كثيرٍ في «التَّفسير» (٣/ ٤٠٩).

فاستَقرَّ رأيُهم علَى عَقدِ مناظَرةٍ ظاهرةٍ بيْن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبيْن كِبارِ السَّحَرَةِ لِيُبْهِتُوا موسى وأخاه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ومَن تَبِعَهم، فقالوا:

{**أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**} [الأعراف: ١١١، ١١٢].

{**أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ**} [الشعراء: ٣٦ - ٤٠].

{فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} [طه: ٥٨ - ٦٠] ... وغير ذلك مِن النُّصوص.

وحتَّى يستَحِثُّوا السَّحَرَة ويُحَفِّزُوهم سَلَكوا مَسْلَكين:

الأوَّل: قالوا لهم: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [طه: ٦٣، ٦٣].

قالَ صاحِبُ «التَّحرير والتَّنوير» (١٦/ ٢٥٥): وأرادوا مِن هذا إثارةُ حَمِيَّةِ بعضِهم غيرةً علَى عوائدِهم، فإنَّ لكلِّ أُمَّةٍ غَيرةً علَى عوائدِها وشرائعِها وأخلاقِها. ولِذا فرَّعوا على ذلك أَمْرَهم بأنْ يَجْمعوا حِيَلَهُم وكلَّ ما في وُسْعِهم أنْ يَغلِبُوا به موسى. اهـ

الثَّاني: إغراؤُهم بالعطايا والسُّلْطَة؛ كما في قولِ اللهِ تعالى: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [الأعراف: ١١٣، ١١٤] ولذلك نظَائِرُ في مَوَاضِعَ أُخرى مِن الكِتابِ العزيزِ.

لكنْ يأبَى اللهُ إلَّا أنْ يُتِمَّ نُورَه ولو كَرِهَ الكافِرون، فقد أظهرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نَبيَّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المَوقِفِ ونصَرَه نصرًا مُؤَزَّرًا، ذَلَّتْ به نواصي الجبابِرَةِ وأذعَنَتْ به القلوبُ المُؤمِنة.

فلَمَّا كان ذلك، لجأ فِرعونُ المَثْبُورُ إلى أساليبَ أُخرى، منها:

٩- زَعْمُ التَّآمُرِ عليه، والافتِراءُ والكَذبُ علَى الخصمِ:

لجأ فِرعون لهذا الأسلوبُ عندما أظْهَرَ لهُ عَزَّوَجَلَّ نَبيَّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ علَى السَّحَرَةِ، وبانَ الحَقُّ للسَّحَرَةِ فآمنوا، إذِ الله قال: {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢] ... وغير ذلك مِن الآياتِ التي بنفسِ المَعنى.

وعندئذٍ خافَ فِرعونُ أنْ يَنْقَلِبَ الأمرُ عليه ويَتَعاطَفُ النَّاسُ مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلجأ إلى نَظَرِيَّةِ المُؤَامَرَةِ، فقال للسَّحَرَةِ لَمَّا آمنوا:

{آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا} [الأعراف: ١٢٣].

[أي إنَّ غِلْبَتَه لَكُم في يومِكم هذا إنَّما كان عن تَشَاورٍ منكم ورِضًا مِنكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، وهو يَعلَمُ وكلُّ مَن له لُبٌّ أنَّ هذا الذي قالَه مِن أبطَلِ البَاطلِ؛ فإنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بمُجَرَّدِ ما جاء مِن مَدْينَ دعا فِرعونَ إلى اللهِ وأظهرَ المُعجِزاتِ الباهِرةِ والحُجَجَ القاطِعةَ على صِدْقِ ما جاء به.

فعند ذلك أرسلَ فِرعونُ في مَدائنِ مُلْكِه ومُعامَلَةِ سَلْطَنَتِه، فجَمَعَ سَحَرَةً مُتَفَرِّقين مِن سائرِ الأقاليمِ بِبلادِ مِصرَ مِمَّن اختَارَ هو والمَلأُ مِن قومِه، وأحضرهم عنده ووعَدَهم بالعطاءِ الجَزيلِ، ولهذا قد كانوا مِن أحرصِ النَّاسِ على ذلك وعلَى الظُّهورِ في مَقَامِهم ذلك والتَّقدُّمِ عند فِرعونَ.

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يَعرِفُ أحدًا مِنهم ولا رآه ولا اجتَمَعَ به، وفِرعونُ يَعلَمُ ذلك، وإنَّما قال هذا تَسَتُّرًا وتدليسًا علَى رِعاعِ دَولتِه وجَهَلَتِهم كما قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [الزخرف: ٥٤]، فإنَّ قومًا صَدَّقُوه في قولِه {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤] مِن أجهلِ خَلْقِ اللهِ وأَضَلِّهم]. قالَه ابنُ كثيرٍ في «التَّفسير» (٣/ ٤١٢).

[ومقْصِدُ فِرعونَ مِن هذا: إقنَاعُ الحاضرين بأنَّ موسى لم يَأتِ بما يُعجِزُ السَّحرَةِ؛ إدخالًا للشَّكِّ علَى نُفوسِ الذين شاهدوا الآياتِ.

وهذه شِنْشَنَةٌ مِن قديمِ الزَّمانِ؛ اختلاقُ المَغلوبِ بارِدَ العُذْرِ. ومِن هذا القَبيلِ اتِّهامُ المَحكومِ عليهم الحاكمينَ بالارتِشاءِ، واتِّهامُ الدُّولِ المَغلوبَةِ فِي الحُروبِ قُوَّادَ الجيوشِ بالخيانَةِ]. قالَه في «التَّحرير والتَّنوير» (١٦/ ٢٦٤).

وعلَى كُلٍّ: فِمن صِفاتِ الحاكِمِ الظَّالِمِ الخبيثةِ؛ أنَّه يَكذِبُ علَى رَعِيَّتِه حتى يَكسِبَ دَعمَهم ويُزَيِّفَ حقيقةَ خسارتِه، ويظهرَ في مَظْهَرِ المُتَآمَرِ عليهِ، فيستَمِيل قلوبَ حاشيتِه وهَمَجِ رَعِيَّتِه.

١٠- التَّنكيلُ بمُخَالِفٍ آخرَ حتَّى يخافَ الخصمُ ويُرْعَبَ الرَّعيَّةُ:

قال صاحِبُ «التَّحرير والتَّنوير» (١٦/ ٢٦٣ - ٢٦٤): لَمَّا رأى فِرعونُ إيمانَ السَّحرَةِ تَغَيَّظَ ورَامَ عِقابَهم، ولكنَّه عَلِمَ أنَّ العِقابَ علَى الإيمانِ بموسى بعدَ أنَّ فتَحَ بابَ المُناظَرَةِ معه

نَكْثٌ لأصولِ المُناظَرَةِ فاخْتَلَقَ للتَّشَفِّي مِن الذين آمنوا عِلَّةَ إعلانِهمُ الإيمانَ قَبلَ استئذانِ فِرعونَ، فعَدَّ ذلك جَرْأَةً عليه، وأَوْهَمَ أنَّهم لوِ استأذنوه، لأَذِنَ لهم، واستَخْلَصَ مِن تَسَرُّعِهم بذلك أنَّهم تَواطؤوا مع موسى مِن قَبلُ فأَظْهَروا العَجْزَ عِندَ مُناظَرَتِه. اهـ

فقال فِرعونُ للسَّحَرَةِ: {**لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**} [الأعراف: ١٢٤]، و{**فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى**} [طه: ٧١].

ومع ذلك فقد ثبَّتَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ السَّحَرَةَ ثباتًا مِن عِندِه، فقالوا لِفِرعونَ:

{**قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**} [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦].

{**قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**} [طه: ٧٢، ٧٣].

{**قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ**} [الشعراء: ٥٠، ٥١].

فمِن عادَاتِ الظَّلَمَةِ بشكلٍ عامٍّ: التَّنكيلُ بالضُّعفاءِ حتَّى يُرْهِبوا رَعِيَّتَهم مِن الخروجِ عن طاعتِهم، أو إظهارِ مُخالَفتِهم، أوِ اتِّبَاعِ سُنَّةٍ غيرِ سُنَّتِهم وما إلى ذلك.

١١- الخِدَاعُ وخُلْفُ الوَعْدِ:

وظَهَرَ ذلك جَليًّا مِن فِرعونَ وملَئِه لَمَّا أرسلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عليهم أَلْوانًا مِن البأس والعذابِ، وكان فِرعون في كلِّ مَرَّةٍ يُرْسِلُ لمُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لئِنْ دعَا ربَّه فكشَفَ عنهم ما حَلَّ بهم، ليُؤمِنَنَّ به وينْجِزْ له مَا وَعَدَه، فكانوا كُلَّما كُشِفَ عنهم الرِّجزُ والعذابُ، عادوا لِمَا كانوا عليه وأخلفوا وُعُودَهم.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: {**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤)**

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ [الأعراف: ١٣٣ - ١٣٥].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: {**وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَاأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ**} [الزخرف: ٤٨ - ٥٠].

١٢- التَّباهي بزائِفِ الأملاكِ ومَظاهِرِ التَّرَفِ:

ويَظْهرُ ذلك في قولِه: {**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ**} [الزخرف: ٥١].

فـ [لَمَّا كُشِفَ عنهم العَذَابُ بدعوةِ موسى، وأضمرَ فِرعونُ ومَلَؤه نَكْثَ الوَعْدِ الذي وعَدُوه موسى بأنَّهم يَهتدونَ، خَشِيَ فِرعونُ أنْ يَتَّبِعَ قومُه دَعوةَ موسى ويؤمنوا برسالَتِه، فأعلَنَ في قومِه تَذْكِيرَهم بعظَمَةِ نفْسِه لِيُثَبِّتَهم علَى طاعتِه، ولِئَلَّا يَنْقُلَ إليهم ما سألَه مِن موسى وما حَصَلَ مِن دعوتِه بكَشْفِ العذابِ، وَلِيَحْسَبُوا أنَّ ارتِفاعَ العَذابِ أَمْرٌ اتِّفاقِيٌّ؛ إذ قومُه لم يَطَّلِعُوا علَى ما دار بَيْنه وبيْن موسى مِن سؤالِ كَشْفِ العذابِ]. قالَه في «التَّحرير والتَّنوير» (٢٥/ ٢٢٩).

وفيه أيضًا احتِمالٌ بكونِه تَباهى بذلك ليُقارِنَ الرِّعاعُ مِن الرَّعيَّةِ بيْنَه وبيْن موسى، وأيُّهما أكثرُ مُلْكًا ووَجَاهَةً، وأيُّهما له السُّلْطَةُ والتَّحَكُّمُ في مِصرَ.

١٣- المُقارنةُ الباطِلةُ، والتَّنَقُّصُ مِن الخصمِ:

وهذا الأسلوبُ يلجأ إليه الظَّالِمُ لِيُلَبِّسَ علَى الهَمَجِ مِن رَعِيَّتِه، ويُشَتِّتَ أفهامَهم وأفكَارَهم، إذِ العقلُ يَعْقِلُ ما يَراه أسرَعُ مِمَّا يغيبُ عنه، ويتَّكِئ علَى المُشاهدَةِ دون الغَيبِ في إثباتِ وقائِعِ الأمورِ غالِبًا.

ويظْهرُ ذلك الأسلوبُ في الآيةِ الماضيَةِ {**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ**} [الزخرف: ٥١].

ويَظْهَرُ ذلك أكثرُ في قولِ فِرعونَ في الآيةِ التي تَلِيها: {**أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**} [الزخرف: ٥٢].

ومَقصودُ ذلك المَثْبُورِ: [تصغيرُ شأنِ موسى في نُفوسِهم بأشياءَ هي عَوارِضُ ليست مُؤَثِّرَةً، انتَقَلَ مِن تعظيمِ شأنِ نفْسِه إلى إظهارِ البَونِ بيْنه وبيْن موسى الذي جاء يُحَقِّرُ دِينَه وعِبَادَةَ

قومِه إيَّاه، فقال: أنا خير مِن هذا. والإشارةُ هنا للتَّحقيرِ. وجاء بالمَوصولِ لادِّعاءِ أنَّ مَضْمونَ الصِّلَةِ شيءٌ عُرِفَ به موسى.

والمَهين - بفتح المِيمِ -: الذَّليلُ الضَّعيفُ، أراد أنَّه غريبٌ ليس مِن أهلِ بيوتِ الشَّرَفِ في مِصرَ وليس له أهلٌ يَعتَزُّ بهم، وهذا سَفْسَطَةٌ وتَشغيبٌ؛ إذ ليس المَقامُ مَقامَ انتِصارٍ حتَّى يُحَقَّرَ القائمُ فيه بقِلَّةِ النَّصيرِ، ولا مَقامَ مُباهاةٍ حتَّى يُنْتَقَصَ صاحبُه بضَعفِ الحالِ.

وأشارَ بقولِه: {**وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**} إلى ما كان في مَنطِقِ موسى مِن الحُبْسةِ والفَهَاهَةِ كما حكَى اللهُ في الآية عن موسى: {**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي**} [القصص: ٣٤]، وفي الأخرى: {**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي**} [طه: ٢٧، ٢٨]، وليس مَقامُ موسى يومئذٍ مَقامَ خَطَابةٍ ولا تَعليمٍ وتَذكيرٍ حتَّى تكونَ قِلَّةُ الفَصَاحةِ نَقْصًا في عملِه، ولكنَّه مَقامُ استِدلَالٍ وحُجَّةٍ فيكفي أنْ يكونَ قادرًا على إبلاغِ مُرَادِه ولو بِصُعُوبةٍ، وقد أزالَ اللهُ عنه ذلك حِينَ تَفَرَّغَ لدعوةِ بني إسرائيلَ كما قال: قد أوتيت سؤلك يا موسى [طه: ٣٦] .

ولعلَّ فِرعونَ قال ذلك لِمَا يعلَمُ مِن حالِ موسى قبلَ أنْ يُرسِلَه اللهُ حِينَ كان في بيتِ فِرعونَ، فذَكَرَ ذلك مِن حالِه لِيُذَكِّرَ النَّاسَ بأمْرٍ قديمٍ]. قالَه في «التَّحرير والتَّنوير» (٢٥/ ٢٣٠ - ٢٣١).

ومعلومٌ أنَّ [الأشياءَ الخلقيَّةِ التي ليستْ مِن فِعلِ العبدِ لا يُعَابُ بها ولا يُذَمُّ عليها، وفِرعونُ وإنْ كان يَفْهمُ وله عَقْلٌ، فهو يَدْري هذا، وإنَّما أرادَ التَّرويجَ علَى رَعِيَّتِه، فإنَّهم كانوا جهلةً أغبياءَ]. قالَه ابنُ كثيرٍ في «التَّفسير» (٧/ ٢١٣).

وعلَى كلٍّ: فهذا تصغيرٌ وتحقيرٌ مِن فِرعونَ المَهين المَثْبُورِ لِمَن أمَامَه أمامَ حاشيتِه والهَمَجِ مِن رَعِيَّتِه، وهذا دأبُ كلِّ طاغيةٍ ظالمٍ؛ حيثُ يُحَقِّرُ جدًّا مِن شأنِ خصمِه حتَّى لا ترتَفِعَ إليه أعينُ النَّاسِ فيقبلونَ مَقَالَتَه وطريقَتَه، ويُزَهِّدَهم فيه.

١٤- الافتِرَاضاتُ والتَّفريعاتُ الباطِلة:

ويَظْهرُ ذلك في قولِ اللهِ العظيمِ جَلَّجَلَالُهُ حِكايةً عن فِرعونَ: {**لَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ**} [الزخرف: ٥٣].

فهَلَّا أُلقِي على موسى- إنْ كان صادِقًا أنَّه رسولُ رَبِّ العالمِين- أَسْوِرَةٌ مِن ذهبٍ، أو جاء

معه المَلائكةُ قدِ اقترَنَ بعضُهم ببعضٍ، فتَتابُعوا يَشهدونَ له بأنَّه رسولُ الله إلينا.

وهذا الكلامُ صَدرَ مِن فِرعونَ لجهلِه أو تجاهُلِه، فإنَّه يُخَيِّلُ لقومِه ويُرَوِّجُ على رَعِيَّتِه أنَّ للرِّسالَةِ شِعارًا كشعارِ المُلوكِ؛ فإنَّ قومَه ورَعِيَّتَه كانوا جهلةً أغبياءَ. كما أشارَ إلى ذلك ابنُ كثيرٍ في «التَّفسير» (٧/ ٢١٣)، وابنُ عاشور في «التَّحرير والتَّنوير» (٢٥/ ٢٣٢).

وهذا ضَرْبٌ مِن المَكْرِ الذي لا يَمُرُّ إلَّا علَى الجُهَّالِ الأغبياءِ، وصدَقَ اللهُ إذ قال: {**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**} [**الزخرف**: ٥٤].

١٥- الاتِّكاءُ علَى سوءِ عقلِ رِعاعِ الرَّعيَّةِ:

كما قال تعالى: {**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**} [**الزخرف**: ٥٤]، فكُلَّما استحوذَ الطَّاغيَةُ على عُقُولِ الرَّعيَّةِ، صَعُبَ علَى المُصلِحين الإصلاحَ والتَّغييرَ.

وإنَّ قومًا صَدَّقُوا فِرعونَ في قولِه {**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**} [النازعات: ٢٤] هُم مِن أجهلِ خَلْقِ اللهِ وأَضَلِّهم، وحِرِيٌّ بِهم أنْ يُصَدِّقوه فيما دون ذلك.

١٦- التَّكَبُّرُ والاستِعلاءُ والمُعانَدَةُ:

وهذا واضِحٌ في آياتٍ كثيرةٍ، مِنها:

قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: {**وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**} [الأعراف: ١٣٢].

وقولُه اللهِ جَلَّ وَعَلَا: {**فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ**} [الأعراف: ١٣٣] و[يونس: ٧٥].

وقولُه اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ: {**وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**} [يونس: ٨٣]

وقولُه اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: {**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**} [النمل: ١٤].

وقولُه اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: {**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**} [القصص: ٣٩].

وقولُه اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: {**إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**} [المؤمنون: ٤٦].

وغير ذلك مِن النُّصوصِ.

فصِفَةُ التَّكَبُّرِ والاستِعلاءِ والمُعانَدَةِ صِفةٌ لازِمَةٌ لكلِّ طاغِيَةٍ ظالِمٍ مُتَجَبِّرٍ لا تنفكُّ عنه لحظةً.

١٧- استِخدَامُ «الأنا» المُتَجبِّرة:

كما قال تعالى في شأنِ ذاكَ المَثْبُورِ: {**فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**} [النازعات: ٢٣، ٢٤]، ونحوه قولُه: {**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**} [القصص: ٣٨]، ومثلُه {**مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**} [غافر: ٢٩]، وهذا لِسانُ ترهيبٍ وتذكيرٍ منه لحاشيتِه وهَمَجِ رَعِيَّتِه، وأنْ يُثَبِّتَهم علَى ما هم عليه مِنِ اعتِقادٍ فاسِدٍ باطِلٍ.

وكذلك كلُّ طاغيَةٍ مُتَجَبِّرٍ عندَه «الأنا» تفوقُ كلَّ أحدٍ سِواه، وعندَه «الأنا» دليلُ وحُجَّةُ كلِّ شيءٍ، بلِ الحُجَّةُ الحاكمةُ علَى كُلِّ حُجَّةٍ الدَّامِغةُ لها، «الأنا» التي تَتَأَبَّطُ الشَّرَ والتَّجَبُّرَ في كلِّ حَرفٍ منها، التي يفوحُ مِنها الظُّلمُ والبغي، فيا ويلَها تلك النَّفسُ التي تُفَكِّرُ في أنْ تَقِفَ أمام هذه «الأنا»، ولكن في الزَّوايا خبايا وفي النَّاس بقايا.

١٨- استخدامُ سوءِ التَّفكيرِ في التَّلبيسِ علَى الرَّعيَّة:

ويظهَرُ ذلك في قولِه اللهِ جَلَّجَلَالُهُ: {**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ**} [غافر: ٣٦، ٣٧].

ونحو ذلك قولُه: {**فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ**} [القصص: ٣٨].

قال ابنُ كثيرٍ في «التَّفسير» (٦/ ٢١٤): إنَّما أرادَ بهذا أنْ يُظهِرَ لِرَعِيَّتِه تَكذيبَ موسى فيما زَعَمَه مِن دَعْوى إلهٍ غيرِ فِرعونَ، ولهذا قال: {**وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ**} أي في قولِه: إنَّ ثَمَّ رَبًّا غَيري، لا أنَّه كَذَّبَه في أنَّ اللهَ تعالى أرسلَه؛ لأنَّه لم يَكُنْ يَعْتَرِفْ بوجودِ الصَّانِعِ جَلَّوَعَلَا. اهـ

وقال الطَّاهِرُ ابنُ عاشور في «التَّحرير والتَّنوير» (٢٠/ ١٢٢): وحيث قال موسى إنَّ الإلهَ الحَقَّ هو رَبُّ السَّمواتِ، فقد حَسِبَ فِرعونُ أنَّ مَمْلكَةَ هذا الرَّبِّ السَّماءُ تَصُوُّرًا مُخْتَلًّا، فَفَرَّعَ علَى نفْيِ إلهٍ غيرِه وعلَى تَوَهُّمِ أنَّ الرَّبَّ المَزعومَ مَقَرُّه السَّماءُ؛ أنْ أَمَرَ هامانَ وزيرَه أنْ يبنيَ له صرحًا يبلُغُ به عَنَانَ السَّماءَ لِيرَى الإلهَ الذي زَعَمَه موسى؛ حتى إذا لم يَجِدْه، رَجَعَ إلى قومِه فأثبتَ لهم عَدَمَ إلهٍ في السَّماءِ إثباتَ مُعَاينةٍ، أراد أنْ يَظْهَرَ لقومِه في مَظهرِ المُتَطَلِّبِ للحَقِّ

المُستَقْصِي للعَوَالِمِ، حتَّى إذا أخبرَ قومَه بعد ذلك بأنَّ نتيجةَ بحثِه أَسْفَرَتْ عن كذبِ موسى، ازْدَادوا ثِقَةً ببُطلَانِ قولِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي هذا الضِّغثِ مِن الجدَلِ السُّفسْطَائِيِّ مَبْلَغٌ مِن الدَّلالَةِ علَى سوءِ انتِظامِ تفكيرِه وتفكيرِ مَلئِه، أو مَبْلَغُ تَخيُّلِه وضَعْفِ آراءِ قومِه. اهـ

لِذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: {**وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ**} [غافر: ٣٦، ٣٧].

وهذه نهايةُ كلِّ طاغيةٍ مُتجَبِّرٍ؛ الخُسرانُ والخَيبَةُ، ويَظُنُّ الواحدُ مِن هؤلاءِ الظَّلَمَةِ أنَّ فِكرَتَه أنجَعُ الأفكارِ وأحسَنِها، وتظْهَرُ الفِكرَةُ في بِدايتِها حَسَنَةً استِدْرَاجًا لهم، ثُمَّ يُفْجَعون بخيبَةٍ تُخَيِّمُ علَى كلِّ شيءٍ.

١٩- إذلالُ الأتباعِ والتَّكَالُ بِهم:

وهي وَسِيلَةٌ ربَّما تُؤتي ثِمارَها عندِ اللَّينِ قَلْبُه، ويستخدِمُها الطُّغاةُ دائمًا، فاستَخْدَمَها فِرعونُ لعلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرْجِعُ عن ذلك، أو أنْ يَخَافَ الضُّعفاءُ مِن اتِّبَاعِه والسَّيرِ علَى نَهْجِهِ، ومِن أساليبِ إذلالِه للأتباعِ ما صَوَّرَه الكِتابُ العزيزُ، ومِنه:

{**وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**} [الأعراف: ١٢٧].

{**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**} [البقرة: ٤٩].

٢٠- الاستِقواءُ علَى الخصمِ بالرَّعيَّةِ وطلَبُ التَّفويضِ منهم بالباطِلِ ليَقْضِي عليه:

فلَمَّا استحوذَ اليأسُ علَى فِرعونَ وعَشَّشَ في جَنَباتِه حتَّى فَرَّخَ، لم يَجِدْ بُدًّا مِن استِخدَامِ العُنفِ والبَطْشِ والإبادَةِ، لكنَّه أرادَ أنْ يكونَ ذلك نابعًا مِن أرادَةِ هَمَجِ رَعِيَّتِه، حتَّى يكون هو المُلَبِّي لِرَغبَتِهم والمُدَافعِ عنهم، فكان الآتي: {**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ**} [غافر: ٢٦]

فهذا إعلامٌ مِن ذلك المَثْبُورِ علَى قَتْلِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَيلِه لذلك، وهو كالإعلامِ

المُتَضَمِّنِ انتِظارَ المَوافقةِ عليه، وهذا الأسلوبُ في الأصلِ لا يُخَاطَبُ به إلَّا المُمَانِعُ ونحوه، كأنْ تُريدُ فِعلَ شيءٍ فتُصَدُّ عنه، فلِرَغْبَتِك فيه تقولُ لمَنْ يَصُدُّك: دَعْني أفعل كذا.

لكن في حقيقةِ الأمرِ لم يكُنْ ثَمَّةَ أحدٌ يُعارِضُ فِرعونَ أو يَمْنَعُه بل لا يَجرؤ أحدٍ علَى ذلك، ففيه [كنايةٌ عن خَطَرِ ذلك العَملِ وصُعوبةِ تحصيلِه؛ لأنَّ مِثلَه مِمَّا يَمْنَعُ الْمُسْتَشَارُ مُسْتَشِيرَهُ مِنَ الإقدامِ عليه]. قالَه في «التَّحرير والتَّنوير» (٢٤/ ١٢٥).

وحتَّى يُثَبِّتَ فِرعونُ ذلك المَطْلوبَ، أرْدَفَه مُباشَرَةً بِبَيانِ عِلَّتِه الواهيَةِ في إقْدَامِه علَى ذلك، فقال: {**إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ**} [غافر: ٢٦]، وقال ذلك أيضًا ليَظْهَرَ في مَظْهَرِ الحاكمِ المُشْفِقِ علَى رَعِيَّتِهم ودِينِهم وأنَّه يسْعَى علَى مَصْلَحَتِهم وتَدبيرِ شؤنِهم وما يُصْلِحُهم.

٢١- وأخيرًا البَطْشُ والعُنْفُ بالخصمِ ومَن مَعَه:

فلَمَّا تَدَثَّرَ فِرعونُ بجُنودِه وحاشيتِه ورَعِيَّتِه وأعماه عِنادُه وتَكَبُّرُه، خَرَجَ لِيَبْطِشَ بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَن مَعَه، والآياتُ التي تُوَضِّحُ ذلك كثيرةٌ منها:

{**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ**} [طه: ٧٨].

{**فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ**} [الإسراء: ١٠٣]

{**فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ**} [الشعراء: ٦٠]

{**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا**} [يونس: ٩٠].

فكانتِ العاقِبَةُ كما قَصَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في كِتابِه العزيزِ في مَواضِعَ، منها:

{**فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**} إلى أنْ قالَ: {**وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**} [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

{**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**} [القصص: ٤٠].

{**فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ**} [الزخرف: ٥٥، ٥٦].

وغير ذلك.

أمَّا موسى وقومُه فقد نجَّاهمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال في: {**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ**

فَأَنْجَيْنَاكُمْ} [البقرة: ٥٠]، {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ} [طه: ٨٠]، {وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ} [الشعراء: ٦٥].

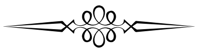
وأُوْرِثُوا الأرضَ، قال اللهُ تعالَى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا} [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [يونس: ٩٣]، وقال: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

وغير ذلك.

فهذه الوسيلةُ؛ وسيلَةُ البَطْشِ بالخصمِ: هي آخرُ وسِيلَةٍ يلْجَأُ إليها أيُّ طاغِيَةٍ ظالِمٍ مُتَكَبِّرٍ في قَمْعِ مَن لمْ يَسْتَطِعْ قَمْعَه وتَنْحِيَتَه عنْ طريقِ مُلْكِه وكُرسيِّه الزَّائِفِ الزَّائِلِ، والذي لا يَعْلَمُه هؤلاءِ الطُّغاةُ أنَّ بعدَ هذه المَرْحَلَةِ لا تكونُ إلَّا مَرْحَلَةُ هلاكِهم هُم، وهذه سُنَّةٌ كونِيَّةٌ ولا تَتَغَيَّرُ ولا تَتَبَدَّلُ، ومَن قرأَ القُرْآنَ عَلِمَ حَقيقةَ ذلكَ، ومَن قرأَ التَّاريخَ أيضًا وَقَفَ على صِحَّةِ هذا.

وفي النِّهايةِ

فهذه أسالِيب خَطَّها فِرعونُ للطُّغاةِ مِن أمثالِه أو مَن دُونه، فلْيَنْتَهِجَها مِنَ الطُّغاةِ مَنْ شاءَ أرادَ، ولْيَعْلَمْ أنَّ سُنَّةَ اللهِ لا تتغَيَّرُ ولا تَتَبَدَّلُ، وأنَّ لكلِّ ظالِمٍ نِهايةٌ ولابُد.



وإنِّي في هذا المَقامِ لا أَدَّعِي أنِّي قد وَفَّيتُ هذا العملَ حقَّه في الجودةِ والإتقانِ، وحَسْبِي أنِّي أردتُ الإصلَاحَ والإحسَانَ، وإنِّي لَأَعْلَمُ أني أخطأتُ في بعضِ ما ذَهبتُ إليهِ، ولن أستَنكِفَ أبدًا عن الرِّجوعِ إلى الحقِّ متى ظَهَرَ لي بِدَلِيلِه؛ لأنَّ عملَ البَشَرِ دائمًا وأبدًا مَحفُوفٌ بالخَطأِ والتَّقصِير، ولَا يخلو مِنْه تصنيفٌ ولا تأليفٌ.

فقدْ قال القَاضِي ابنُ البَيْسَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **قديمًا كما في «كشف الظُّنون»** (١٤/١) : إنِّي قدْ رأيتُ أنَّه لا يكتبُ إنسانٌ كِتابًا في يومِه إلَّا قال في غَدِه: لو غُيِّرَ هذا لَكانَ أحسنَ، ولو زِيْدَ كذا لَكَان يُستَحْسَن، ولو قُدِّمَ هذا لَكانَ أفضل، ولو تُرِكَ هذا لَكانَ أجمل، وهذا مِن أعظَمِ العِبَرِ، وهو دَلِيلٌ على استِيلَاء النَّقصِ على جُملَةِ البَشَرِ. اهـ

وقالَ المُزَنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **كما في «مُوَضِّح أوهَام الجَمْع والتَّفريق»** (١٤/١): لو عُرِضَ كِتَابٌ سبعينَ مَرَّةً لوُجِدَ فيه خطأٌ، أَبَى اللَّـهُ أنْ يكونَ كِتَابٌ صَحِيحًا غيرَ كِتَابِه. اهـ

هذا واللهَ - تعالى - أسألُ أَنْ يغفِرَ لمَن استغفرَ لي، وأنْ يرْحَمَ مَن تَرَحَّمَ عليَّ، وأنْ يجعلَ هذا العملَ خالِصًا لوجهِهِ الكريمِ، وألَّا يجعلني وإيَّاكم مِن الظَّالِمِين ولا عونًا لِلظَّالمين، وأن يجعلَني وإياكم مِنَ الذَّاكرِينَ اللهَ كثيرًا، وأنْ يَتقبَّلَ مِنَّا ويتقبَّلَنا في الصَّالِحِين، ويحشُرَنا مع النَّبيِّ الأمينِ محمَّدٍ ﷺ.

وصلَّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحْبِه وسلَّمَ تَسلِيمًا كثيرًا

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين

قاله بلسانه وخطَّه ببنانه: الرَّاجي رحمةَ العلي

أبو أنس/ أحمد بن علي الجُبَيلي

غفر الله له ولوالديه ولزوجتِه ولمشايخه

تحريرًا في ليلةِ الأربعاء

(١٣/ رمضان/ ١٤٤١) هـ = المُوافق (٦/ ٥/ ٢٠٢٠) م

هاتف+ واتس: (٠٠٢٠١٠٦٤٦٨١٣٥٣)